فهناك حيّ بكامله من المدينة، بمساحاته المُغلقة كما المفتوحة، تعلّم منه مواطنوه ان وجود المساحات العامة وحده لا يعني فعلاً الترحيب بهم في ما يتخطّى أخذ الصور التذكارية للمتزوّجين. وليست على هذا الاساس مقابلة الوزير السابق للثقافة ذات السياسات القمعية المشهودة والقيّم الآن على المتحف، في صحيفة «غارديان» البريطانية، وهو يتحدّث من مكتبه الواقع داخل حرم الجامعة الاميركية في بيروت كما يقدّمه المقال، ليست هذه سوى كاريكاتور «للاقتصاد الثقافي اللبناني»، الذي بنت أُسسه القوى المُستعمرة في السنين التي زارنا فيها كريمسكي، والتقطت مفاصله شلل المقلّدين من الطبقات العليا المحلّية، والذي يمكننا الآن وبعد مرور قرن من الزمن، ملاحظة فشله على جميع الصعد: أكان في مجال بنائه لهوية محلّية جامعة، او حتى لهويات جزئية عمادها ليس التكبّر الطبقي الفارغ وحده، أو حتى في تكوين مشروع ثقافي، مهما كان مربحاً مالياً او قابلاً للاستمرار بنفسه (ولبنان فاشل حتى في «ثقافة» التلفزيون، ولا تصمد محطّاته من دون دعم رأس المال الخليجي). وكان طريفاً أن يقرأ المرء في صحيفة «لوريان لوجور»، لمناسبة افتتاح المتحف، لنموذج من المتملّقين عند الطبقات العليا المهيمنة «ثقافياً» في عهدٍ سابق، وهو يتذمّر من «الغاء لغة أمين معلوف» من منشورات المتحف الجديد واستبدالها باللغة الانكليزية. وقد عزا المقال ذلك التغيير مع الوضع السابق للمتحف، بحق، الى «ذريعة الهيمنة الانكليزية». فهل تكون هذه حدود التغييرات في سياسة المتحف الجديد؟ باستبدال أهواء والعاب طبقة عليا «فرانكوفونية» بأهواء والعاب طبقة عليا «مُتأمركة»؟ ان المهمة الموكلة لأي مشروع ثقافي محلّي، يريد لنفسه النجاح والانتشار، تقتضي منه اعادة صياغة علاقته بالجمهور الأوسع، وذلك بدءاً من تجنّب الدوران حول النفس من خلال عروض فنية تجريبية تعالج «اعادة صياغة العلاقة بالجمهور المشاهد»، ما كلّ الفنانين من تكرارها منذ «نافورة» مارسيل دوشان. على القيمين ان يبتكروا سبلاً جديدة لتسويق المتحف ولجذب فئات اجتماعية جديدة ومتنوعة الى داخل حرمه وبشكلٍ مستمر، وهو ما سيخدش حياء بضع مئات من هوات المسابح المُغلقة إذا ما تحقق، وهذا جلّ ثمنه. والمشكلة بالعادة، ان القيّمين على المشاريع الثقافية هم من الطبقة الرديئة نفسها هذه. بهذا المعنى، ليس «المعرض المؤقت» المُقام في القاعة المركزية الجديدة سوى بداية شيء، يدعو للترقّب والتنبّه.

استدعت الادارة مجموعة من الباحثين والخبراء قاموا بجهدٍ متفوّق بالمعايير المحلّية بالبحث والاختيار وتعريب مجموعة من الاعمال التي تصوّر المنطقة التي تقع فيها بيروت خلال 160 عاماً، بين سنتي 1800 و1960. أعطي لموضوع المعرض اسماً متواضعاً، «نظرات على بيروت». لم يُعتبر الموضوع «فناً»، بل فقط «نظرات»، ربما لأن البحث دلّ الى انه - بالرغم من ثقله الرمزي اليوم - لم يكن ملهماً لإنجازات فنّية عالية خلال الاعوام. ويعود ذلك من ناحية الى ان بيروت، في المرحلة المُعالجة، لم تكن بعد «مدينية» المستوى (وليس الطابع)، اذا ما قورنت بالمجمعات السكنية الامبراطورية حيث ابتُكرت الثقافة بنماذجها المعتمدة اليوم. كان المكان يشبه نوعاً من «الارض الفارغة» التي شيّد عليها المستعمرون والطبقة الحاكمة العثمانية الفاسدة ما نرى نتائجه اليوم. من هذه «الارض الفارغة» المعروضة في المتحف، قد يستلهم رسام معاصر مشاهد رومانطيقية مثلاً، مشهد لمدينة اليوم مدمرةً بالكامل، وقد اصبحت آثار، يكون حجّة للفنان لرسم الطبيعة المُحيطة في الجوار كما فعل الفنانين المُستشرقين في القرن التاسع عشر. ويكون بالتالي للعمل مستويَين فنّيَين، شكلاً ومفهوماً.

اما انطلاقة المدينة كمركز لمشروع سياسي خاص، فسيشاهدها الزائر في لوحة بورتريه مضحكة للجنرال الفرنسي غورو، وقد صوّره فنانٌ في الجزء الاعلى للوحته ووضع تحته مبانٍ أيقونية «وطنية» مثل ساعة السراي وقلعة بعلبك (على طريقة «عمّر، علّم، حرّر»). عندما وصلنا صديقي وانا الى هذه اللوحة، قلنا لانفسنا: آه، هنا العلامة الفارقة، هنا بدأت اللمسة الفنية اللبنانية وانطلق الابداع اللبناني. طبعاً، كنا نمزح، ولم نبالِ بأخذ اللوحة ضمن اطار انتاجها الاجتماعي، وقد تكون (او لا) من صنع هاوٍ من تلك المرحلة وليست لفنانٍ مرموق، ونُظرنا اليها بالمقارنة مع اعمالٍ المستشرقين الاجانب التي غلبت على جدران المعرض قبل الوصول اليها. لكن وبالمحصلة، تساءلنا سوياً: ألسنا نعيش في حالة العقم نفسها منذ تلك الايام؟ هناك شيء يدعو للتفكّر في هذا المعرض، منظومة ما للرصد او التفكيك، عن الفنون.

قالت لموقع «ناو»، بعدما اختلفت مع ابن أحد المسؤولين الأمنيين لأنه «اعتاد» أن يدخل محلها ويهينها أمام الزبائن بسبب ولائها للأسير. تقول ليال للموقع نفسه، إنه خلال أيام اعتقالها الخمسة اغتصبت مرتين من قبل المحققين، ومن ثم اتهمها غاصبوها بأنها «عاهرة»، مهدّدين بأنهم سيحققون في «نشاطها بالدعارة». وهو «اتهام» يصبّ في سياقات السلطة الأخلاقية الجاهزة وثنائياتها المطلقة.

قالت الكياجي إن المحامي نصحها حينها، ألّا تتحدث عن الأمر «لأنه لن يصدقها أحد»، فتكلمت بعد سنتين لتحال على القضاء وتعترف بحسب بيان رسمي لمديرية المخابرات «بأنها اختلقت تلك الرواية لكسب العطف، وتأمين فرصة عمل». أما الشابة الأخرى، فلم نسمع عنها شيئاً غير ما ذكره الخبر الأساسي الذي تداولته وسائل الإعلام في 22 أيلول.

لا يفوت قارئ المقابلة أن طرح موقع «ناو» للقصة لا يخلو من الاستغلال والتوظيف السياسي الرديء للحادثة. إذ ذكرت الكياجي في المقابلة، أنها تلقت رسالة تهديد من قبل «شخص معروف بانتمائه سياسياً إلى حزب الله» قبل أن تعتقل، ولم توضح علاقة الرسالة بالاعتقال، كما لم تذكر مضمون الرسالة. لسنا بصدد تأكيد هذا الادعاء أو نفيه، ولا البحث في نية الكياجي أو مصداقيتها، ولكن موقف الموقع السياسي القريب من «14 آذار»، يؤكد فرضية التوظيف السياسي، الذي يغيّب السؤال الرئيسي، ولعلّه الوحيد، الذي يجب طرحه هنا، وهو: هل تعرضت ليال الكياجي للاغتصاب أم لا؟

نعم، ليس هناك أي إثبات على أن الكياجي تعرضت فعلاً للاغتصاب، وذلك لأنه لم يتم التحقيق في الأمر أصلاً، ولكن لا بد من التذكير أن معظم أجهزة الدولة العسكرية والأمنية ليست ذات تاريخ نظيف حينما يتعلق الأمر بتعذيب المساجين واستغلالهم جنسياً.

هكذا يصبح جسد المرأة وهويتها موقعاً لممارسة «الثقافة المهيمنة»، التي تجعل من حالة اغتصاب محتملة قضية يكفي لإقفالها تصريح رديء يحمل «اعترافاً» من «الضحية» بالكذب، ويجعل من التحرّش أداة شرعية لتهديد الناشطات لإخراجهن من ساحات النضال. ولكن هذه التكتيكات أثبتت وستظلّ تثبت فشلها في ترهيبهن ومنعهن من التظاهر والمطالبة بحقوقهن وحقوق الشعب، خصوصاً في ظلّ التحرّك الشعبي الذي زعزع، ولو قليلاً، المنظومة الأبوية الطائفية العنصرية التي تحكمنا، وخلق مساحاتٍ للعمل السياسي خارجة، إلى حدٍ ما، عن أطر تلك المنظومة.

* من أسرة «الأخبار»

التسوية في فيينا... لسورية أم للمنطقة؟

عدنان بدر حلو *

منذ استقلال سورية في منتصف الأربعينيات حتى عام 2011، كان الصراع العربي ـ الصهيوني يشكّل محور الحياة السياسية السورية في كافة مناحيها وحقولها، بغض النظر عن مدى جدية هذا الطرف السوري الرسمي أو الشعبي في اعتناقه أو تبنيه للقضية الفلسطينية أم لا!

كانت الأنظمة، على تعاقبها، ترفع شعار «ألا يعلو صوت على صوت المعركة»، وكانت قوى المعارضة، على تنوعها، تطرح برامجها وشعاراتها على أساس أنها الأكثر جدية وصدقية في التهيؤ للمواجهة مع العدو الصهيوني.

فقط، مع اندلاع أحداث 2011، وفجأة، وبصورة شبه كلية ارتفع هذا الموضوع بصورة مطلقة من التداول، وحلّت مكانه شعارات داخلية محض! حتى في حالات الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على هذه المنطقة السورية أو تلك، لم يكن الأمر ليستوقف أحداً من القوى المتحاربة وكأنه مجرد فاصل إعلاني عابر في سياق الفيلم الدموي المستمر. ما من شيء يشبه هذا التغييب الغريب لموضوع الصراع مع إسرائيل، أكثر من لجوء الحواة ولاعبي الخفة للفت نظر جمهور المتفرجين عن الأمر الأساس الذي سيكون موضوع لعبتهم ليعود إلى الظهور في النهاية بصورة مفاجئة تبهر الأنظار بغرابتها!

هذه الصورة كانت حاضرة في المؤتمر الصحافي الذي عقده وزيرا الخارجية الأميركي والروسي ومبعوث الأمم المتحدة دي مستورا في ختام اجتماع فيينا قبل أيام... فبعد تلاوة البيان

> هل كان لوجه الله دور الولايات المتحدة منذ الأيام الأولى للأحداث؟

الشهير الصادر عن ذلك الاجتماع وتولي الوزيرين والمبعوث شرحه وتفصيله، لا سيما عندما أكد دي مستورا أن من بين القوى المتحاربة هناك من سيلتزم بوقف إطلاق النار طوعاً وهناك آخرون تمون عليهم قوى مشاركة في الاجتماع سوف تلزمهم بالالتزام... عند ذاك بدا واضحاً أن هذه الأطراف التي تمثل المجتمعين الدولي والإقليمي هي التي كانت تقود الأحداث على الأرض السورية وهي التي سوف تتولى وضع حد أو نهاية لهذه الأحداث!

ترى ألا يطرح السؤال هنا حول هدف هذه الأطراف الدولية والإقليمية من ذلك كله!

هل تم تدمير العراق وسورية وليبيا واليمن، هكذا لوجه الله؟ هل هي مجرد كارثة شبه طبيعية حلّت بالعرب مع مطلع العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، مثلها مثل أي زلزال أو إعصار يضرب هذه المنطقة من العالم؟

هل كان لوجه الله دور الولايات المتحدة خاصة (وكل الآخرين بشكل عام) منذ الأيام الأولى للأحداث عندما كان سفيرها روبرت فورد يتابع كل صغيرة وكبيرة في شؤون «الثورة السورية» ومعه دبلوماسيون ورجال مخابرات من العديد من الدول التابعة غير المشهود لها أبداً بالشغف الديمقراطي أو بالوَلَهُ الغرامي بالشعب السوري.

أم أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين لم يجد غير انفجار الأحداث في سورية كتوقيت لحجّه التاريخي إلى القدس المحتلة ليناقش مع نتنياهو وغيره من المسؤولين الإسرائيليين موضوع تلك الأحداث وتطوراتها، ثم ليعود رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى رد تلك الزيارة عشية إعلان موسكو عن مباشرتها التدخل الجوي في سورية! على ضوء هذه التساؤلات غير البريئة، نعود إلى لقاء فيينا وبيانه، حيث نرى:

أولاً: إن إسرائيل كانت حاضرة في الاجتماع من خلال أصدقائها الكثر بين أطرافه. تماماً كما كانت حاضرة في الأحداث السورية من خلال اعتداءاتها المتكررة خلال تلك الأحداث ومن خلال إشرافها المباشر وغير المباشر على الكثير من ساحاتها لاسيما في الجنوب وأطراف الجولان وداخل غرفة الموك في الأردن. كما أن إسرائيل هذه، المطلة على الجغرافيا والأحداث السورية، قادرة في أي وقت على نسف أية ترتيبات في تلك الجغرافيا لا تكون مناسبة لها، وليس هناك أي طرف بين هذه الأطراف قادر أو عازم على منعها من ذلك، تماماً كما كان يجري خلال تدخلاتها العدوانية المتكررة على مدى السنوات الخمس الماضية، عندما لم تكن تجد من يقول لها: ما أحلى الكحل في عينيك!

ثانياً: إن أطراف هذا اللقاء، الممثلين للمجتمعين الدولي والإقليمي، غير معنيين بالأحداث السورية لأسباب سورية فقط، بل هم قيمون على موضوع أوسع وأهم بكثير هو استقرار المنطقة الشرق أوسطية كلها وما يمكن أن تشكله من ورشة هائلة للشركات متعددة الجنسية في المستقبل المنظور! وهم كما - هو وارد في بيانهم - سيعملون على تشكيل بنية جديدة للدولة السورية يلملمون مكوناتها من الحطام المتناثر على أنحاء الأرض السورية.

ثالثاً: إن هذه الدولة المبنية من قبل المجتمعين الدولي والإقليمي ستكون، رغم علمانيتها ووحدة أراضيها كما ينص البيان، خاضعة تماماً لمسلمات المجتمع الدولي وقوانينه وأعرافه وشروطه. ولعل في أول أولويات هذه المسلمات والقوانين والأعراف والشروط، الانخراط في مشروع تسوية ما يسمى بأزمة الشرق الأوسط. ومن المؤكد أن سورية الناهضة من بين الأنقاض بمساعدة المجتمعين الدولي والإقليمي ورعايتهما، والتي ستكون معتمدة على مساهماتهما في إعادة الإعمار والتوطين وغير ذلك، لن تكون قادرة على العودة إلى سياسة مستقلة عن هذا الدور الدولي والإقليمي ومتمردة عليه، بغض النظر عمن سيبقى أو ينسحب أو يظهر من جديد في مدارج المسؤولية فيها. مثلها في ذلك مثل العراق المدمر وليبيا الممزقة واليمن الرازح تحت نيران القصف الجوي والبحري والبري لما يسمى بـ«التحالف العربي»!

وهنا جدير جدا بالملاحظة أن هذه الدول العربية الأربع يجمعها قاسم مشترك واحد، على اختلاف أنظمتها السابقة للأحداث وسياساتها، هو عداؤها للكيان الصهيوني وعدم انخراطها في ما يعرف بالتسوية السياسية لأزمة المنطقة!

أما متى ستخرج أرانب التسوية من قبعات اللاعبين في فيينا أو جنيف فهو مسألة توقيت مناسب، لأنه سيكون مرتبطاً بنهاية الاحتفال، احتفال الدماء مع الأسف!

* كاتب سوري

إسرائيل كانت حاضرة في الاجتماع من خلال أصدقائها الكثر بين أطرافه (أ ف ب)